

الفصل الثالث

عمل الحواريين

(أ) الحواريون فلسطينيون . ما هي وجهة نظرهم ؟ - هناك يهود خارج فلسطين : الأمة اليهودية في المهجر - كيف تكونت هذه الأمة - تنظيم مجتمعاتها - دعوة معابدها - كيف وصلت هذه المعابد إلى وفاق مع الفكر اليوناني - روح رواد المعابد اليهودية في العالم اليوناني : الخصائص التي جعلت هذه الروح على استعداد لقبول الدعوة المسيحية .

(ب) التأليف اللغني لدى الأمة اليهودية في المهجر - المانديائيون - الناطوريون - الهيزمستيون والسابازيون - كيف مهدت هذه الفرق للمسيحية .

(ج) كيف عبرت عقيدة الحواريين الطريق إلى مجتمعات الأمة اليهودية بالمهجر ؟ روايات مجموعة : أعمال الرسل - بارنابا في أنطاكية - غموض وضعف عمل الحواريين في فلسطين .

(١)

كان أصحاب عيسى وأتباعه الذين اطمأنوا إلى قوة إيمان القديس بطرس ،
فتجمعوا - بعد فترة الرعب الأولى - ليحاولوا إعادة بناء الحلم الضائع
واسترجاع الآمال التي غرسها أستاذهم في القلوب ، كانوا يهوداً سذجاً بسطاء
ليس لهم شأن في قومهم ، ولا يمتازون بثقافة كبيرة وعلينا ألا ننسى ذلك ،
فأفاقهم الفكرية لم تكن بأوسع أو أبعد حدوداً من أفق عيسى ، واقتصر
طموحهم على الرغبة في دفع « الخراف الضالة من بيت إسرائيل » نحو طريق
النجاة . وجميع الدلائل تحملنا على الاعتقاد بأنهم كانوا شديدي التعصب
لبنى جلدتهم من اليهود - على الأقل في بدء الدعوة - وفاقوا في ذلك عيسى
نفسه ، وكانت فكرة تبشير الوثنيين بعيدة كل البعد عن عقولهم ، بل الواقع أنه
كان من ضروب المستحيل أن يتصوروا إمكان انتشار الإنجيل بين رجال لم يؤمنوا
بالعقيدة اليهودية قبل ذلك .

ولكن عدداً وفيراً من اليهود في ذلك العصر كان يقيم خارج فلسطين وكان
يحسب حسابهم عند البحث في شئون بني إسرائيل .

وهناك أسباب عديدة دفعت بأجداد هؤلاء اليهود المقيمين خارج فلسطين
إلى الهجرة خلال القرون الأربعة السابقة للمسيحية . أول هذه الأسباب كان
ما فرضته ظروف تاريخهم : فبلادهم التي تحدها مملكة البطالمة بمصر والمملكة
السلوقية بسوريا كانت ميداناً للكثير من المعارك التي خاضها المصريون
والسوريون . وفي أثناء الغزوات أسر أولئك وهؤلاء الكثير من الناس ، ولم يعد

الأسرى بعد ذلك إلى وطنهم . وتكرر الأمر كثيراً خلال ذلك النضال الطويل من أجل الاستقلال الذى كافح فيه المكابيون ضد ملوك سوريا . ثم تكرر بعد ذلك لمصلحة الرومان عندما قاتلوا نطاكيوس الأكبر ، وعندما تدخلوا فى الفتن المحلية التى ثارت بفلسطين فى فترات مختلفة . ومن ناحية أخرى أظهر اليهود ، عند حالة حسن معاملتهم ، قوة ودأباً على العمل وإخلاصاً له . لذلك حاول البطلمة والسلوقيون أن يستقدموا مجموعات كبيرة منهم ، ونجحوا فى ذلك ، فاستقر بعضهم فى دلتا النيل وفى ليبيا ، وبعضهم الآخر ببلاد الليبين بفرجيا . وأخيراً فإن فلسطين لم تكن بالبلد الذى يختص بموارد للثروة لا تنفذ فى حين أن اليهود قوم يمتازون بالتكاثر السريع ؛ ودعا هذا الكثير منهم - بعد أن ضاقوا بالعيش فى موطنهم الفقير - إلى البحث عن رزق جديد فى مختلف الأقاليم التى يسيطر عليها أسيادهم الأجانب ، ووجد عدد غير قليل منهم الرخاء والثروة حيث حلوا . لذلك لم يكن إغراقاً كبيراً فى المبالغة الشعرية أن يعلن يهودى من الإسكندرية محدثاً قومه قبل مولد المسيح بقرنين من الزمن : « الأرض جميعاً ملأى بكم وأيضاً البحار » .

وكان يخيل كذلك إلى العالم الجغرافى « سترابون » الذى عاصر المسيح أن الإنسان يجد اليهود فى كل مكان . والواقع أنهم كانوا قد انتشروا حول حوض البحر المتوسط كله ، غير أنهم لم يلتقوا فى جماعات كثيفة إلا بالمدن الإغريقية الكبيرة وبربوع ما بين النهرين ، ثم بروما - تلك المدينة التى كان يقيم فيها ، فى عهد الإمبراطور أغسطس ، حوالى اثنى عشر ألفاً من اليهود .

أينما حل اليهود فهم عامة لا ينسون أصلهم ولا دينهم ؛ لذلك نراهم يتكاتفون وينظمون صفوفهم ، ويسعون لدى سلطات البلاد التى يقيمون فيها

للحصول على حقوقهم الشرعية في الحياة . وكانوا يتظلمون من الناحية الزمنية في جماعات لها رؤساؤها وحكامها وقضاؤها وتقاليدها . أما من الناحية الروحية فكانت تجمعهم المعابد التي يقصدونها للاستماع إلى تلاوة النصوص المقدسة ، وللصلاة والتعبد الجماعي ، وكانت لهذه المعابد أيضاً حكوماتها الصغيرة ؛ وقد تعتمد الجاليات اليهودية الكبرى - مثل تلك التي كانت بروما - إلى تقسيم أعضائها بين عدة معابد . وسمح الأمراء الإغريق والسوريون والمصريون لليهود المقيمين في ممالكهم بكل ما طالبوا به من تنظيمات ، بل منحهم امتيازات شتى . وسار الرومان على المنوال نفسه فأصبح بنو إسرائيل يتمتعون بدستور فعلى يحميهم في سائر أرجاء الإمبراطورية . ولم يكن هذا الدستور يقتصر على السماح لهم بإقامة شعائر دينهم والتصريح لجماعاتهم بما تريد من نشاط ، بل ذهب في العطف عليهم إلى حد مراعاة حساسيتهم الدينية ما أمكن مراعاتها ، ومحاولة إرضاء ميولهم وتزعاجاتهم في كثير من الأحيان .

إلا أن أهل المدن التي كثرت فيها اليهود كانوا ينظرون إليهم في شيء غير قليل من الغضب ويناصبونهم العدا ، وذلك لأسباب عدة ، منها تلك الامتيازات العريضة التي ذكرناها والتي هيّج تكبرهم الطبيعي من شعور الناس إزاءها ؛ ثم ذلك الاحتقار الذي كانوا يبدونه تجاه الديانات الوطنية والذي دفعهم إليه بالطبع ، في كثير من الأحوال ، ما وجدوه من حماية السلطات ؛ كما كانت تؤخذ عليهم عيوب وتقاليدهم غير مألوفة ، نذكر منها على الأخص : غرابة الطقوس في المعابد بالنسبة إلى عامة الوثنيين الذين لم يجدوا بها ما اعتادوه في معابدهم ، وفرض الختان ، وتحريم بعض أنواع المأكولات التي أتت الشريعة الموسوية بتحريمها ، ثم كانت هناك فوق كل هذا افتراءات بالغة الأثر ضد اليهود

من تلك التي يؤمن بها عامة الشعب في سهولة : أن طقوسهم الدينية تقتضى سفك الدم الآدمي ، أو أنهم يتجهون في عبادتهم لرأس حمار .

وقد تميز العالم الإغريقي الروماني بعداء محقق للسامية يكاد يصل إلى حد العنف والقسوة على اليهود ، ولولا مراقبة سلطات الأمن للأمر بشدة - وإن أفلت منها الزمام في بعض الأحيان - لقاسى بنو إسرائيل الأمرين من ذلك الشعور . ولهذا الظاهرة التي ذكرناها منذ بداية حديثنا أهمية قصوى : ذلك أن شعور العداء والبغض لدى الشعب بالنسبة إلى اليهود سوف يتحول في سرعة سريعة إلى المسيحيين^(١) .

إلا أن اليهود في مقابل هذا الشعور الشعبي العدائي ، كانوا يتمتعون عادة برعاية الحكام ، بسبب روحهم الطيبة وإخلاصهم للعمل وصبرهم عليه ، وكانوا كذلك يستثيرون اهتمام وعطف هاتيك الفئة من الناس التي لم ترص عن العبادات الوثنية الشائعة لما تشتمل عليه من أساطير بالغة العقم وطقوس مردولة ونظريات فيما وراء الطبيعة لاستند قوى لها . وفي هذا العصر الذي شوهد فيه بدء رواج الأديان الشرقية الزاخرة بالعاطفة ، بدت اليهودية لهؤلاء الذين تدفعهم طبيعتهم إلى تفهمها وكأنها أبسط الأديان قاطبة وأسمها وأرقها .

ومن ناحية أخرى نرى طوائف اليهود التي اتصفت في بلادها الأصلية بالحذر والانطواء وإساءة استقبال الأجنبي ، تتخذ في بلاد الوثنيين أخلاقاً أكثر ليونة وكرماً . فقد أصبحوا لا يغلقون معابدهم أمام المشركين ، بل يتساعحون فيستقبلونهم على أعتابها ، ولا يمتنعون عن تعريف الراغبين منهم بأحكام الشريعة

(١) جمع «ت . ريناك» الوثائق اليونانية الرومانية الخاصة باليهود ، وترجمها وحققها في كتاب له صدر بباريس عام ١٨٩٥ : «نصوص من المؤلفين الإغريق والرومان» .

الموسوية . وقد ترجمت هذه الشريعة إلى اليونانية ، فصار في استطاعة كل إنسان مثقف أن يدرسها .

وهكذا اجتمعت شيئاً فشيئاً حول كل معبد طائفة من المريدين الذين ذهب بعضهم إلى نهاية الشوط في اعتناق اليهودية ، فأقيمت لهم طقوس الطهارة والختان ، وفرضت عليهم القرايين للمعبد المقدس ، وأصبحوا من بنى إسرائيل . أما بعضهم الآخر فلم يبلغ من التحمس هذا المبلغ ، مكتفياً بارتياح الحلقات التي كانت تقام على أعتاب المعابد ، بصفة منتظمة أو غير منتظمة ، وبالمساهمة المادية في نفقات هذه المعابد ، ثم باعتناق الكثير أو القليل من العادات والتقاليد الخاصة بالحياة اليهودية ، على قدر ما كانت تسمح به مكانتهم الاجتماعية . وسماوا من أجل ذلك بـ « المتقين الله » . ولاشك في أنه قد تكونت منهم جموع غفيرة بجوار الطوائف اليهودية الكبرى في الشرق وفي مصر . أما في روما فن المؤكد أن بعض أعضاء الطبقات الشريفة ، وبخاصة منهم النساء ، قد انضموا إليهم مع آخرين من مختلف الأوساط الاجتماعية .

ولم يكن يهود المهجر قد احتفظوا بالصورة الأصلية الكاملة لعادات وروح إخوانهم في الدين من أهل فلسطين . فقد لانت تلك العادات وتلك التقاليد ، ولأن معها تعصبهم وعداؤهم لـ « الأجنبي » في ربوع هذه البلاد التي لم تكن لترضى بهم لولا ذلك ، وأقاموا صلوات يومية مستمرة بمجتمعات « الكفرة » ، وتأثروا في قوة وعمق بتيارات الثقافة اليونانية التي انغمسوا فيها شيئاً فشيئاً فإذا ما تركنا جانباً عقيدتهم الدينية وفروض طقوسها الأساسية ، وجدنا أن هؤلاء اليهود - بعد جيلين أو ثلاثة من الهجرة - لا يفترون في لغتهم ومظهرهم وثقافتهم العامة ، عن الإغريق الذين يماثلونهم في الظروف الاجتماعية . وأظهر الذين

ارتقوا منهم إلى أعلى مراتب التعليم إعجاباً عميقاً بأدب اليونان وفلسفتهم ، وامتزج فكرهم بهذا الأدب وهذه الفلسفة إلى حد الشعور بأنه لم يعد في استطاعتهم التخلي عنها لإرضاء الشريعة الموسوية ، كما لا يستطيعون التخلي عن تلك الشريعة في سبيلها . لهذا نرى فيلون - وهو المثل الواضح لهؤلاء اليهود الذين تشبعوا بالروح اليونانية - نراه في الإسكندرية يحاول مخلصاً أن يبرهن على عدم التعارض بين الوحي الذي نزل على موسى والأحكام التي جاء بها وبين نظريات أفلاطون وزينون ، وعلى أن المرء لا بد له من الاقتناع بذلك إذا أحسن فهم مقاصد الفيلسوفين^(١) .

لهذا أيضاً رأينا بعض العقائد التي عدّها يهود فلسطين عقائد أساسية ، تضعف وتذوب لدى إخوانهم باليونان ، مثال ذلك عقيدة انتصار الأمة اليهودية ، فقد ابتعدت عن الصورة القديمة لها مع ما امتازت به من تعصب وعنف وضيق أفق ، وأصبحت تنحو نحواً آخر هو الدعوة إلى فتح العالم كله لأسرار الحقيقة .

ومقابل ذلك رأينا اتجاهات فكرية ، غريبة على بني إسرائيل الأصلاء ، تفرض نفسها عليهم وتؤثر في مذاهبهم . ونذكر ، على سبيل المثال : تشبعهم شيئاً فشيئاً بالفكرة اليونانية التي تقول بازدواج الشخصية الإنسانية . فلم يعودوا يعلقون أهمية كبيرة على مصير الأجساد في العالم الآخر ، وراحوا يبذلون العناية كلها للتفكير في مستقبل أرواحهم وتلك مسألة لم يكن يهود فلسطين قد شغلوا أنفسهم قط بإنشاء عقيدة واضحة فيها .

(١) انظر كتاب إميل برهيه : « التفكير الفلسفي والديني عند فيلون الإسكندري » ، باريس ، ١٩٠٧ .

ولاغربة إذن في تلك الظاهرة التي نلاحظها لدى الأتباع الجدد للدين اليهودي ، من الاحتفاظ بمقومات الثقافة والفكر المنتشرة في بيئتهم الأصلية ، فلم يكن ثمة ما يدعوهم إلى احتقار تلك الحضارة التي صورها لهم معلومهم الأول على أنها أجمل الحضارات قاطبة وأكرمها بالنسبة إلى الإنسان العاقل . فإذا ما اعتنقوا اليهودية على نحو ما ، لم يكن ذلك إلا على أساس تطويرها مع اتجاهاتهم الفكرية ، وعدم التخلي عن الأراء أو تقاليد الحياة التي نشأوا عليها ، إلا في حدود ما بدا لهم أنه يتعارض تمام التعارض مع ما يأخذونه من الدين الجديد .

ولهذه الأسباب كانت طوائف اليهود في المهجر ، وكذلك طوائف « المتقين الله » أكثر استعداداً من يهود فلسطين لمناقشة ما يدعيه الحواريون ، ثم للاقتناع به إن بدت لهم الحجة قوية ؛ وقد أظهر « المتقون الله » ميلاً خاصاً إلى ذلك . ولهذا أيضاً كان الخطر كبيراً على العقيدة العيسوية - وهي العقيدة البسيطة غاية البساطة التي أثبتت التجربة مرونتها الكبيرة - عندما انتقلت إلى المعابد اليهودية في بلاد اليونان : خطر الانحراف والتطبع بخصائص الفكر اليوناني .

(ب)

ويتضح لنا هذا الخطر إذا علمنا أن اليهود ، في بعض مناطق المهجر ، لم يكتفوا بالتطور الاجتماعي وفقاً للبيئة التي يعيشون فيها ، ولم يكتفوا بإعادة تنظيم عقيدتهم الدينية أو - على الأقل - تفسيرها لأنفسهم بما يتفق وثقافتهم مع صيانة جوهرها كاملاً لم يكتفوا بذلك ، بل راحوا يخلطون باليهودية بعضاً من أفكار ومعتقدات المشركن الوثنيين المحيطين بهم ، في الوقت الذي كانت فيه

طوائف من المشركين الوثنيين تعتنق الكثير من المعتقدات اليهودية الأساسية لتمرّجها بأديانها المختلفة . ونحن لا نعلم شيئاً كثيراً عن التركيبات العديدة وتيارات التأليف^(١) التي نشأت عن هذا التداخل ، إلا أن ما نلمحه منها خلال الوثائق يكفي للدلالة على أهميتها القصوى .

فإذا نظرنا مثلاً إلى الجالية اليهودية ببلاد ما بين النهرين ، وجدناها تقيم في مركز ممتاز بالنسبة إلى تأثيرات إيران وبابل ، وإن ظنت هذه الجالية أنها محصنة أمام كل تأثير أجنبي . وإيران وبابل هما البلدان اللذان نبعت منهما تأليف دينية بالغة في الإغراب انتظمت في مذاهب متفاوتة الانسجام لتفسير الوجود والحياة ، مذاهب للمعرفة الخاصة التي لا يرقى إليها سوى طليعة من الناس ، ولا توثق لهم إلا إلهاماً أوبعد تدرج في مراتب السلوك على أيدي العارفين . وعلينا أن نذكر على الأقل واحدة من التأليف الدينية التي نشأت في هذه البيئة واتخذت من اليهودية عنصراً أساسياً من عناصرها : تلك هي الماندائية ، وهي نوع من التوحيد بين اليهودية وبين العقائد البابلية . ويبدو أنها كانت ، فيما بعد ، أساساً مبدئياً لإنشاءات دينية أخرى تهم تاريخ المسيحية .

وثمة جالية ثانية تهمنا كثيراً في نفس المجال ، هي تلك التي كانت تقيم ببلاد الفريجيين . وقد امتازت هذه البلاد ، خلال كل العصور القديمة ، بحياة دينية نشيطة ، فلما جاء إليها اليهود شكلوا بادی الأمر جماعة أو جماعات منعزلة عن مجتمعات الوثنيين ، ولكنهم لم ينجوا في النهاية من تأثير هذه المجتمعات كما أثروا فيها بدورهم . ونتيجة لذلك رأينا المشركين يتبنون الكثير من المعتقدات الدينية

(١) Syncretisme وهو الاسم الذي تعارف الكتاب على إطلاقه على الإنشاءات الدينية التي تنظم عناصر نابعة من أديان مختلفة .

اليهودية ويمزجونها بمعتقداتها المحلية . وكانت العبادة التي اختص بها الفريجيون في ذلك العصر هي عبادة « الأم الكبرى سيبيل » ورفيقها « أتيس » . وقد لقب الأخير بلقب « هيزستوس » ، أى : « الأعلى » ، وهو لقب يهودى الأصل ، يوازى في معناه ما نجد في عقيدة كلدانية أخرى تقول بأن مقام الآلهة « فوق الطبقات الكونية السبع والسماء بنجومها » كذلك إذا أردنا تقصى أصول الألفاظ ، فإنه يمكننا القول في سر بأن اسم « سابازيوس » وهو اسم الإله الفريجي الذى يعادل جوبيتر أوديونيزيوس - ليس سوى « ساباوت » اليهودى ، وإننا لنلمح من خلال الوثائق الغامضة - ولشد ما نأسف لعدم وضوحها - فرقاً من أنصاف اليهود « الهيستين » و « السبتين » أو « السابازيين » تشارك جميعها في أمل واحد هو : النجاة في عالم خالد والحياة السعيدة إلى مالا نهاية بعد الموت ، بواسطة شفاعة « منقذ إلهي » . وإن وحدة الروح بين أعضاء كل من هذه الفرق لتتمثل في مشاركتهم في مآدبة تقام حسب طقوس معينة وفي جو من التعبد والتقرب إلى الإله . ولعل أمثال هذه المآدب قد ارتقت منذ ذلك الحين إلى مرتبة أسرار القربان المقدس ، أى : أن من شأنها إفاضة العناية الإلهية على المشتركين فيها ، أو تأهيلهم خاصة لهذه العناية ^(١) .

ونشاهد نشأة تركيبات وامتزاجات مماثلة بين العقائد في بلاد أخرى ، فنص بالذكر منها : مصر وسوريا . وسوف نحدد فيما بعد تأثيراتها المختلفة على التفكير الدينى لدى القديس بولس .

وإذن فقد تشكلت الفرق العديدة القائمة على أساس من اليهودية للتأليف بين العقائد وللمعرفة الباطنية ، وانتشرت خاصة حول فلسطين ، وليس من

(١) انظر كتاب كومون : « الديانات الشرقية في العبادات الرومانية » باريس ، ١٩٠٩ .

المستبعد أن تكون قد تفرعت بين ربوعها ، في العصور السابقة لمولد المسيح ، بفضل وفود الحجاج الكبيرة إلى القدس من يهود المهجر في مواسم الاحتفال بأعيادهم السنوية .

وإننا لنقرأ عن فرقة من هذه الفرق - فرقة « الناطوريين » التي انتشرت على ضفاف نهر الأردن قبل مولد المسيح - نقرأ عنها في كتابات أحد المؤلفين المسيحيين من القرن الرابع هو القديس إبيفان . ولم يكن هذا الكاتب بالمنصف في كل ما كتبه ، إلا أنه استطاع أن يجمع المعلومات الواردة عن أمثال تلك الفرق الشرقية . ومحدثنا ببعض التفصيل عن فرقة (الناطوريين) فيقول إن أتباعها لم يعترفوا بمعبد اليهود كمركز لطقوسهم ، ولكنهم ساروا على تقاليدهم الأخرى ، ولم يقبلوا الشريعة اليهودية على أنها شريعة إلهية ، متأثرين في ذلك بالتيارات الفكرية الخارجية ، ثم إنهم كانوا يعدّون أنفسهم « قديسين » بالنسبة إلى بقية البشر - وكان هذا رأى المسيحيين الأول أيضاً في بدء دعوتهم . ومن ناحية أخرى ، يمكن أن نفسر الاسم الذي اتخذوه لفرقتهم بالرجوع إلى كلمة « ناظر » العبرية ، التي ترجمها اليونان بكلمة « هاجيوس » ، أى : « قديس » وينطبق هذا التفسير أيضاً على اللقب الذي أطلق على عيسى . وكان هؤلاء الناطوريون في أغلب الظن شديدي التحمس لفكرة حلول مملكة الله .

ولعلمهم كانوا السابقين إلى التفكير في « المسيح المنتظر » ، وإلى القيام بطقوس معينة من أجله ، على غرار ما كانت تقوم به فرق أخرى أكثر إغراقاً في الشرك منهم بالنسبة إلى « الإله المنقذ » الذي تنهياً له ، متأثرة في ذلك باتجاهات دينية خارجية مختلفة .

وإن ما تجمع لدينا من معلومات لاتكفي لأن تقطع بالرأى في كل ما يتعلق

بهذه الفرق اليهودية التي نزعَت إلى تأليف وتطوير عناصر مختلفة من الأديان الموجودة حينذاك . غير أن مجرد وجودها يدل دلالة واضحة على اتصال الروابط بين اليهودية بمعناها الحقيقي وبين الأديان الأخرى المختلفة في غربي آسيا ، تلك الأديان التي شاركت اليهودية في فكرة ترقب أو عبادة « منقذ إلهي » ، وإن تفاوتت أشكال هذا الترقب وتلك العبادة .

ونتيجة لهذا : يمكن القول إن انتشار فكرة حلول مملكة الله الفلسطينية الأصل خارج حدود فلسطين في صورة مجمدة ، ودراسة الكثير من معابد المهجر اليهودية لهذه الفكرة بعين الاعتبار ، ثم تسربها إلى المجتمع المحيط بالمعابد مثل رواد « حلقات العتبة » ، بل إلى مجتمعات قد تكون أقل صلة بالمعابد من هؤلاء يمكن القول إن كل ذلك ليس بالأمر الغريب بداهة .

ويدل وجود هذه الفرق أيضاً على أن عقيدة وتقاليده معابد المهجر كانت أكثر ليونة وتقبلاً للتطور من مثيلاتها في ربوع فلسطين ، وأنه كلما ابتعد اليهود عن المعبد الأكبر - معبد القدس - وكهنته ، أصبح تعصبهم للشريعة اليهودية ضعيفاً أمام بعض العوامل الخارجية ، فيتزعون في بعض الأحوال إلى التعبير عن شعورهم الديني في صورة أقرب إلى الفطرة وأكثر انسجاماً مع المشاغل الدينية العامة للوسط الذي يعيشون فيه والذي لم يكن له بد في النهاية من التأثير عليهم .

وبعبارة أخرى ، نستطيع القول بأن اليهود و« أنصاف اليهود » خاصة في المهجر ، كانوا - فيما يبدو - أكثر استعداداً لقبول دعوة أصحاب عيسى من يهود القدس وفلسطين . هذا وإن كان الخطر كبيراً على هذه الدعوة أن تصبح عنصراً جديداً ومؤثراً لا يعرف مدى قوته ، يضاف إلى كل تلك العناصر

والمؤثرات الداخلة فى التركيبات الدينية المعقدة لدى الكثير من الطوائف التى ذكرناها .

(جـ)

مرت دعوة أصحاب عيسى فى عبورها من ربوع فلسطين إلى أراضى المهجر بأدوار غاية فى التسلسل ، وكأنها أدوار حتمية لامرد لها . فجموعة « أعمال الرسل » تقص علينا أن الحواريين استألوا إلى عقيدتهم بعض يهود اليونان الذين وفدوا إلى القدس فى الاحتفالات الخاصة ببعض الأعياد . وعادت فئة من الحجاج إلى ديارها فور انتهاء هذه الاحتفالات فى حين بقيت فئة أخرى بالمدينة المقدسة ، غير أنها لم تلبث أن طردت منها إثر مقتل الثماس إيتين على أيدي قضاة اليهود . وكان إيتين هذا قد تخصص فى شرح وإذاعة الانجيل بين رحاب القدس التى ينفق عليها يهود اليونان (انظر : « أعمال الرسل » ، ٦ / ٩ وما يليها و ٧ / ٥٧ وما يليها) .

ورحل الأنصار الجدد المطرودون . . رحلوا إلى فينيقيا وقبرص وأنطاكية ، حيث راحوا بدورهم ييشرون بعيسى فى المعابد (انظر : « أعمال الرسل » ، ١١ / ١٩ وما يليها) .

« وتحدثوا أيضاً إلى أهل اليونان » ، أى : إلى « المتقين الله » ، « وآمن الكثير من هؤلاء اليونانيين بالسيد المسيح » .

ولم يكن أصحاب عيسى هم السبب فى هذا النشاط ، بل لم يكن يدور فى خلدهم تدبيره ؛ فلما علموا بنتائجهم ، بعثوا إلى انطاكية برسول مؤتمن ، يدعى برنابا ، ليدرس هذا الموقف الذى يبدو أنه أثار لديهم الشكوك والقلق . غير أن

حماس الأتباع الجدد لم يلبث أن انتقل إلى برنابا نفسه الذى رأى فى ظاهرة انتشار الدعوة نفحة إلهية فوقف كل جهوده فى إخلاص عميق لمواصلة هذه المبادأة المثمرة فى مجال العمل التبشيري. ورحل إلى طرسوس حيث كان يقيم حيثئذ بولس ، وعاد به إلى انطاكية ليشركه فى عمله ، وكان بولس هو الدعامة الكبرى للمسيحية المستقبلية .

إننا نعلم تماماً أن الحواريين الاثنى عشر والأتباع المباشرين لعيسى لم يكونوا يستطيعوا القيام بنشاط يذكر فى القدس ، بل كان موقفهم هو موقف أساذهم فيها مضى ، وكانت تهددهم الأخطار التى هددته . وكانوا بدلا من تبشير الأساذ بوشك « حلول مملكة الله » يبشرون بـ « عودة السيد المسيح » ، إلا أن هذه وتلك صنفان من الادعاءات التى لا بد أن تضعف أركانها إذا طال انتظار تحقيقها . لذلك كان من العسير أن نبين ، على وجه التحديد ، ما قام به أصحاب عيسى الأول من أعمال . لقد تجمعوا حول بطرس وحننا اللذين يبدو أنه قد انضم إليهما إخوة الأساذ فى زمن مبكر ، إذ أن بولس نفسه يقول عن أحدهم - وهو يعقوب الأصغر - إنه كان يعيش مع بطرس بين مجموعة من أتباع عيسى بالقدس .

وغالب الظن أن هؤلاء الأتباع عاشوا عيشة تمتاز بالحياة خلال إقامتهم فى المدينة المقدسة ، ولم يتعدوا عنها كثيراً .

وتدعى بعض الأساطير اللاحقة أن أندريا قد ارتحل إلى بلاد السبخ ، فى حين توجه يعقوب الأكبر إلى إسبانيا ، وأخوه حنا إلى آسيا الصغرى . وتوماس إلى الهند والصين ، وبطرس إلى كوريشيا وروما . وليست قصصهم جميعاً بالضاربة فى الخيال ، إلا أن الجزم بصحة أى منها أمر محال .

وخلاصة القول أنه لم يتبق لدينا أى معلومات يمكن الاعتماد عليها عن حياة أصحاب عيسى المباشرين ، سوى الفصول الاولى من مجموعة « أعمال الرسل » . وحتى هذه الفصول لم تصل إلينا إلا فى نسخة تختلف كثيراً - وبصورة تدعو إلى الشك - عن النص الأول .

وإن هذا الصمت ليدعو إلى الاعتقاد بأنهم لم يقوموا بأعمال خارقة . والمرجح أنهم لم يكونوا يستطيعوا ذلك .

ولعلنا نستطيع القول بأن بطرس ويعقوب الأكبر ويعقوب الأصغر وأيضاً - فى غالب الأمر - حنا ، ماتوا قتلى . وقد نستطيع أيضاً أن نتبع - من خلال كتابات المؤلفين الذين تخصصوا فى الفرق الدينية^(١) - تلك المجموعات الدينية الصغيرة التى أنشئوها على أساس من العقائد اليهودية ، والتى التجأت إلى الأراضى الواقعة جنوب نهر الأردن فى أثناء الثورة اليهودية الكبرى عام ١٦٦ . وبدت تلك المجموعات منذ وقت مبكر متأخرة كثيراً فى عقيدتها عما يؤمن به المسيحيون فى ربوع اليونان ، ولم يمض القرن الثانى للميلاد حتى أصبح هؤلاء المسيحيون ينظرون إليها نظرة استياء ، وأثرها المباشر على تاريخ المسيحية لا يكاد يذكر .

أما الروح الجديدة التى أحييت المسيحية فقد أتتها من بيئة أخرى .

(١) أمثال القديس إيرينيئوس فى القرن الثانى ، ومؤلف الـ « فيلوسوفومينا » المجهول فى القرن الثالث ، والقديس إبيفان فى القرن الرابع ، إلخ .